

الصّوت اللّغوي في القرآن الكريم: جمالية وإعجاز

د. فضيلة مسعودي¹، د. عبدالله لاطرش²

المركز الجامعي مغنية¹ ، Rayahin13t1m@gmail.com

المركز الجامعي علي كافي تندوف² ، Aboubelsam13@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/06/07 . تاريخ القبول: 2019/08/28 . تاريخ النشر: 2019/12/31

الملخص:

اهتم العلماء منذ القدم باللغة فبحثوا ونقبوا وكتبوا وألفوا في شتى المجالات والميادين ذات الصلة باللسان العربي، وكان المستوى الصوتي أحد مستويات الدرس اللغوي وربما أولها وأهمها باعتبار الصوت اللغوي اللبنة الأساسية لأية لغة، والعربية لغة القرآن الكريم ذات تنوع واستعمال صوتي معجز ميزها عن لغات العالم كاملة. النص القرآني معجز في لغته وفي كل جوانبه، ومن هذا المنطلق جاءت فكرة البحث في إعجاز الصوت اللغوي في القرآن الكريم بهدف الكشف عن بعض مواطن هذا الإعجاز، وتدقيق جماليته. ومن أهم ما توصل إليه البحث أن الصوت اللغوي يحمل دلالة من خلاله مجانسته المعنى، وهذه الدلالة ناتجة عن حسن تخير المادة الصوتية مخرجا وصفة لتلائم الموقف وتصور المشاهد بشكل فريد يفوق الإبداع البشري ويولد حالة نفسية لدى المتلقي تجعله ينساق طوعا خلف ما يسمع أو يقرأ من الآيات القرآنية.

الكلمات المفتاح: اللغة - الصوت اللغوي - القرآن الكريم - الإعجاز - الدلالة.

Abstract:

Scholars have been interested in the language since ancient times, so they searched, researched, wrote, and composed in various fields and domains related to the Arabic tongue. The phonemic level was one of the levels of the linguistic lesson, and perhaps the first and the most important, considering the linguistic phoneme the basic building block of any language, and Arabic is the language of the Noble Qur'an with diversity and phonological use that distinguishes it from the languages of the whole world. The Quranic text is

* المؤلف المرسل: د. فضيلة مسعودي ، Rayahin13t1m@gmail.com

miraculous in its language and all its aspects, and from this standpoint came the idea of researching the linguistic miracle of the linguistic voice in the Holy Qur'an to uncover some of the aspects of this miracle and savor its beauty. One of the most important findings of the research is that the linguistic voice carries a connotation through it homogenizing the meaning, and this indication is a result of the good choice of the sound material as a way out and a recipe to fit the situation and the viewer perception in a unique way that surpasses human creativity and creates a psychological state in the recipient that makes him voluntarily drive behind what he hears or reads of Quranic verses lines, in which the subject is determined, the problem and the objective, and the results in short.

Key words: The language- The linguistic voice- The Holy Quran
The Miracles- The indication

1- مقدمة: القرآن الكريم أشرف كتاب تضمن صدق متحمله، وأعظم دستور أنزل على خير عباد الله، حجة كفاية وهداية جاءت في أبلغ حلة، وعلى أعذب مقطع، وأرق إيقاع، وأجود صياغة، وأصدق تعبير على الإطلاق. كتاب أحكمت آياته باختيار أصواته، وانتقاء مفرداته، وسبك تراكيبه، ودقة معانيه؛ فجاء إحكامه مضبوطاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وكان معجزة أبدية تضمنت معنى الإعجاز في كل جوانبه: لغوي، وعددي، وعلمي وغيره مما يضيق المقام لذكره.

التعبير القرآني فريد في سموه ورفعته وبلاغته وفصاحته، إنه يعلو الكلام كله ويفوقه ولا يضاهيه في الكون كلام. أبهـر العرب وهم أصحاب صنعة بيان، وتحداهم أن يأتوا بمثله أو بشبيهه فـعـجـزوا، ومن هنا جاء معجزاً بلفظه ومعانيه وحسن نسقه نزل مشافهة منذ بدايته، فمن الروح الأمين إلى سيد خلق الله تعالى، إلى الناس كافة على مرّ العصور وإلى يومنا هذا لاتزال المشافهة سرا ربانيا من أسرار القرآن الكريم، وقد أثبتت التجربة والدراسات أن المشافهة أحسن طريقة لتعلم القرآن وحفظه وإتقان أحكامه ولعل في الأمر وجه إعجاز خفي لا يدركه إلا العارفون به وبأسراره.

حاول العلماء كل في مجال اختصاصه سبر أغوار الكتاب المقدس، فكتبوا وألفوا وتحدثوا ودونوا، ومع كل ذلك لا يزال النص القرآني مجال بحث وتمحيص وفي كل حين،

يبهر الخلق بلون جديد من ألوان الإعجاز. ومن ذلك ما نجده على مستوى الصوت اللغوي وما له من مكانة وأهمية في الدرس اللغوي، ومن هذا المنطلق تشكلت فكرة البحث انطلاقاً من إشكالية: كيف يتجلى إعجاز الصوت اللغوي في القرآن الكريم؟ وماهي تمظهراته؟ وفيم تكمن جماليته؟ في محاولة لإثبات فرضية وجود دلالة للصوت داخل البنية ذات بعد إعجازي.

والهدف من البحث بالدرجة الأولى هو نيل شرف الاطلاع على نوع من الإعجاز القرآني والاستمتاع بمختلف جوانبه، ثم محاولة إثراء الموضوع والمساهمة فيه اقتداءً بمن سبقونا إليه بحثاً وتأليفاً وهم أكثر. وكان العمل وفق المنهجية التالية: تمهيد للموضوع يليه حديث عن الصوت اللغوي ودوره في إبراز المعنى، ثم أمثلة من القرآن عن الجرس الصوتي، وبعده صور أخرى للإعجاز القرآني ذات صلة بالصوت اللغوي، وأخيراً الإعجاز النفسي وعلاقته بالصوت اللغوي. وسار البحث على هذه الخطة معتمداً الوصف والتحليل لمناسبتها طبيعة الموضوع.

2. الصوت اللغوي في القرآن الكريم

1- الصوت ركيزة اللغة:

لا يخفى على أحد امتياز أسلوب القرآن بخصائص ومزايا فريدة " جعلت له طابعا معجزا في لغته وبلاغته أفاض العلماء فيها بين مُقلِّ ومكثّر، ولكنهم بعد أن طال بهم المطاف وبعد أن دميت أقدامهم وحفيت أقدامهم؛ لم يزيدوا على أن قدّموا إلينا قلا من كثرة وقطرة من بحر، معترفين بأنهم عجزوا عن الوفاء، وأن ما خفي عليهم فلم يذكروه أكثر مما ظهر لهم فذكروه، وأنهم لم يزيدوا على أن قرّبوا البعيد بضرب من التمثيل رجاء الإيضاح والتبيين. أما الاستقصاء والإحاطة بمزايا الأسلوب القرآني وخصائصه على وجه الاستيعاب فأمر استأثر به مُنْزله الذي عنده علم الكتاب"¹

وهذا العجز عن الإحاطة بخباياه ضرب آخر من الإعجاز لكتاب أحكمت آياته، ويقودنا هذا الإحكام إلى استجلاء القيم الصوتية والبنوية والتألفية في كتاب الله العزيز، وإلى الغوص بحثاً وتقيباً في القيم الاعتبارية للصوت اللغوي العربي عموماً، وفي الأثر الدلالي لأصوات لغة القرآن الكريم على وجه الخصوص، وهذا ما يفتح آفاق البحث والاشتغال في صور وتمظهرات هذا الإعجاز في كتاب الله عز وجل، ويحقق الدافعية في النفوس على الدوام تقنياً، وتدوفاً للقيم الصوتية لأصوات وصيغ ومفردات اللغة العربية والتي أخرجها النص القرآني إخراجاً إعجازياً، بما هي عليه في أي كتاب الله من سبك ونظم، تتواشج فيه القيم الصوتية بالقيم التوليفية محققةً جملاً وتراكيب تبقى على الدوام ناضحة بالمعاني الحكمية والتشريعية وحتى الجمالية.

2- إعجاز الصوت اللغوي:

وقد تضمن الإعجاز أصغر ما يمكن الوصول به في اللغة وهو الصوت وهو اللبنة الأساسية في اللغة؛ فالكلام عبارات، والعبارة مفردات، والمفردة مجموعة صوتية تدل على معنى، وهذه المجموعة وحدة كلامية تقوم مقام الجزء من الكل في الجملة، وهي الجزء الأول في بناء النظم والوحدة المكونة له فلا يغني أحدهما عن الآخر.²

وتتميز النص القرآني بكونه الأبلغ والأصح تركيباً وانتقاء للأصوات وفق ما يناسب المعنى والمقام. يقول الرافعي "إن طريقة النظم التي اتسقت بها ألفاظ القرآن، وتألفت لها حروف هذه الألفاظ، إنما هي طريقة يتوخى بها إلى أنواع من المنطق وصفات من اللهجة لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب، ولكنها ظهرت فيه أول شيء على لسان النبي صلى الله عليه وسلم؛ فجعلت المسامع لا تنبو على شيء من القرآن، ولا تلوي من دونه حجاب القلب، حتى لم يكن لمن يسمعه بدّ من الاسترسال إليه والتوفر على الإصغاء، لا يستهله أمر من دونه وإن كان أمر العادة، ولا يستنسه الشيطان وإن كانت طاعته عندهم عبادة؛ فإنه إنما يسمع ضرباً خالصاً من الموسيقى اللغوية في انسجامه واطراد نسقه واتزانه على أجزاء النفس مقطعاً مقطعا، ونبرة نبرة كأنها توقعه توقيعاً ولا تتلوه تلاوة"³، فالقرآن الكريم ينتقي الأصوات بحسب الدلالات لتجسيد المعاني في أحسن صورة، وقد اشتمل على مفردات لم تكن تجري على ألسنة العرب سلفاً لكنها استهوتهم مذ طرقت أسماعهم، وألهمتهم ففسدوا على منوالها واستغرقوا في استعمالها بل وقعدوا للغتهم انطلاقاً من تشكيلها. لذلك نجد للصوت مكانة كبيرة في بيان إعجازه اللغوي وغير اللغوي، نظامه الصوتي البديع يجبر الأذن على حسن الإصغاء، ويذهب بالوجدان والفؤاد حتى لا تكاد الأذن تمجّه أو تمهّ.

ألا تلاحظ أنك "إذا قلبت النظر بين ألفاظ القرآن ومعانيه تجد إعجازه يشع عليك منهما معاً، فترتب حروفه بما لها من صفات وإيحاءات، وتناسق كلماته بما لها من شعاع يتألق من رصفها وترتيبها، وتساوق المعاني التي تسابق إلى النفس وقع ألفاظها في السمع كل ذلك من أسرار الإعجاز البياني في القرآن؛ فقد قدر في ترتيب حروفه مخارجها ونبراتها وصفاتها وما يوحي به كل حرف من أثر في النفس، كما قدر في ترتيب الكلمات التناسق العجيب بحيث تكون كل كلمة منها لقف أختها فلا تجد بينها ما ينبو عنه السمع أو ينفر منه الطبع. وما أجمل وصف الأستاذ الرافعي لحروف القرآن إذ وصف كل حرف منها بأنه يمسك الكلمة ليمسك بها الجملة، وما أروع المثل الذي ضربه للقرآن حيث جعل مثله مثل نظام الكون في ترتيبه الدقيق وتناسقه العجيب بكل ما فيه من الذرة إلى المجرة"⁴، لأن للمفردة القرآنية تأليف صوتي معجز يظهر في تناسق أصواتها وخلوها من التنافر وهو ما أعطاها قوة وجزالة ومن هنا

خلص العلماء إلى وضع أساس لتجاور الحروف وهو يعود في الأصل إلى مخارجها، فالحروف أثقل على اللسان كلما تقاربت في المخرج، وتكون أخف إذا تباعدت "لأنك إذا استعملت اللسان في حروف الحلق دون حروف الذلاقة ودون حروف الفم كلفته جرسا واحدا وحركات مختلفة"⁵ وهو ما يورث المفردات تنافرا وثقلا، ولذلك نلاحظ أن رتب الفصاحة تتفاوت بحسب التركيب الصوتي للكلمة حيث أنها تخف وتثقل تبعا لانتقال اللسان وجميع أعضاء النطق وتموضعها أثناء التحقيق الصوتي للحروف.

"ولمّا كانت أصوات القرآن متجانسة تماما فإن القرآن كله متلائم في الطبقة العليا، وذلك يبيّن لمن تأمله، والفرق بين القرآن وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى، وبعض الناس أشدّ إحساسا وفطنة له من بعض"⁶، فتأليف الكلام -حسب الرماني- يأتي على ثلاثة أوجه: متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى وهو كلام العرب الفصحاء، ومتلائم في الطبقة العليا وجعلها خاصة بالقرآن الكريم تمييزا له عن كلام البشر.

وقد تنبه العلماء لهذا الأمر في كلام الله تعالى وأرشدوا إليه وأفاضوا فيه، ومن بين هؤلاء نجد الزرقاني يمعن النظر ويمتعنا بقوله: "امتاز القرآن الكريم برصف حروفه وترتيب كلماته ترتيبا دونه كل ترتيب، ونظام تعاطاه الناس في كلامهم ولقد وصل هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز بحيث لو دخل في القرآن شيء من كلام الناس لاعتل مذاقه في أفواه قارئيه، واختل نظامه في آذان سامعيه، ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوي وذاك النظام الصوتي أنهما كانا دليل إعجاز من ناحية، وكانا سورا منيعا لحفظ القرآن من ناحية أخرى. وذلك أن من شأن الجمال اللغوي والنظام الصوتي أن يسترعي الأسماع ويثير الانتباه ويحرك داعية الإقبال في كل إنسان إلى هذا القرآن الكريم، وبذلك يبقى أمد الدهر سائدا على ألسنة الخلق وفي آذانهم، ويعرف بذاته ومزاياه بينهم فلا يجروا أحد على تغييره وتبديله مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر، 09]، ولا يتمرأى اثنان في رقة اللفظ القرآني وسحره وعذوبته التي نجمت عن حسن نسجه⁷، وهو خير الكلام بحق، "فخير الكلام ما أيده العقل بالحقيقة، وساعده اللفظ بالرفقة، وكان له سهولة في السمع، ووقع في النفس، وعذوبة في القلب وروح في الصدر، يجمع لك بين الصحة والبهجة والتمام، فأما صحته فمن جهة شهادة العقل بالصواب، وأما بهجته فمن جهة جوهر اللفظ واعتدال القسمة، وأما تمامه فمن جهة النظر الذي يسترعي من النفس شغفها ويستثير من الرّوح كلفها"⁸ وهو حال القرآن الكريم تماما ولا غرو فهو كلام العزيز الحكيم.

3- دلالة الصوت اللغوي:

1- دلالة الصوت اللغوي ومجانسة المعنى:

أثبتت الدراسات الحديثة وقبلها تلك المنثورة هنا وهناك في مؤلفات القدامى الدور الكبير الذي يلعبه الصوت اللغوي في الدلالة، "ونستطيع أن نقول في غير تردد أن للحرف في اللغة العربية إيحاء خاصا، فهو إن لم يكن يدل دلالة قاطعة على المعنى يدل دلالة اتجاه وإيحاء، ويثير في النفس جوا يهيء لقبول المعنى ويوجه إليه ويوحي به"⁹.

ومما لا شك فيه "أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنوع الصوت بما يخرج منه مدًا أو غنةً أو لينا أو شدة، وبما يهيء له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها؛ ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع، أو الإطناب والبسط؛ بمقدار ما يكسبه من الحدودة والارتقاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها، مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى"¹⁰ وهنا نشير إلى التنوع في الأداء الصوتي حيث "لا تحتفظ أصوات اللغة بخصائصها المفردة لأن أصوات الكلمة الواحدة أو أصوات الكلمات تكتسب أثناء الكلام صفات جديدة وخصائص لفظية وذلك نتيجة عادات نطقية متوارثة وانفعالات نفسية تؤثر في جهة أصوات الكلام،

والتنغيم في أصوات الكلام صعودا وهبوطا، كما تؤثر في ترتيب النغمات المتتابعة في المجموعة الكلامية مما يفرض على الباحث دراسة عدد من ظواهر الكلام كالنبر والتنغيم"¹¹- أي فونيمات ما فوق التركيب- فمن شأنهما تحديد مختلف المعاني التي يتضمنها اللفظ الواحد داخل السياق، وتظهر بشكل جلي في الأداء القرآني وهذا ما قصده الراجعي حين أردف قائلا: "فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات في هز الشعور واستثارته من أعماق النفس؛ وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي أو أعجمي"¹² وهو شق من الإعجاز النفسي الذي سنأتي على ذكره في موضع آخر من البحث.

وأصوات العربية "واسعة الأفق، كاملة في مدرجها الصوتي، حسنة التوزيع للحروف والأصوات في هذا المدرج، متميزة المخارج والصفات، ثابتة الأصوات عبر القرون، يتوارثها جيل بعد جيل، متنوعة الوظائف في بنية الكلمة، لكل نوع من الحروف والأصوات وظيفة في تكوين المعنى، وتثبيت أصله وقراره وتنويع شكله وألوانه، مع تناسق بين أصوات اللغة وأصوات الطبيعة وتوافق بين الصورة اللفظية والصورة المعنوية المقصودة"¹³، وفي هذا

المقام حديث عن نوع من الإعجاز في لغة القرآن الكريم وهو موافقة الصوت للمعنى، وهو ما سمّاه ابن جني بمقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فقال: "أما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونهج متلئب عند عارفه مأموم؛ وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها، فيعدّلونها بها

ويحتذونها عليها وذلك أكثر ما نقدره وأضعاف ما نستشعره ... ومن ذلك قولهم النضح للماء ونحوه، والنضح أقوى من النضح قال الله سبحانه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نُضَاحَتَانِ﴾ (الرحمن، 66) فجعلوا الحاء -لرقتها- للماء الضعيف، والحاء -لغلظها- لما هو أقوى منه¹⁴، وهنا حديث عن جرس الصوت، حيث يرى ابن جني من خلال هذا القول أن كل جزء من الكلمة يعبر عن غرض ومعنى يختص به دون سواه، إلا أن بعض العلماء من أمثال إبراهيم أنيس و صبحي الصالح لا يوافقونه الرأي بحجة أن الظاهرة ليست عامة في كل العربية لذلك - برأيهم - لا تتطلب إفرادها بالدرس والتمحيص.¹⁵

والجرس هو " أن يأتي مسموع الأصوات على حذو محسوس الأحداث"¹⁶، أي أن يلائم اللفظ بأصواته المعنى المقصود ملاءمة دقيقة تنبع من مجانسة الصوت للمعنى أي أنه الأثر السمعي للصوت في الأذن والنفس على حد سواء، وهو من المحسنات البديعية من باب مجانسة الصوت للمعنى أي محاكاة أحد أصوات الكلمة لما تدل عليه.

تحدث د/ صبحي الصالح عن عذوبة اللفظ القرآني الناتجة عن جرسه فقال: " اللفظة المفردة في كل آية من آياته تكاد تستقل بجرسها ونغمها بتصوير لوحة كاملة فيها اللون زاه أو شاحب، وفيها الظل شفيف أو كثيف؛ رأيت لونا أزهى من نظرة الوجوه السعيدة الناظرة إلى الله، ولونا أشدّ تجهما من سواد الوجوه الشقية الكالحة الباسرة في قوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (23) وَوَجُودٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24) تَنْظُرُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25)﴾. [القيامة، الآيات 22، 23، 24، 25] لقد استقلت في لوحة السعداء لفظة (ناضرة) بتصوير أزهى لون وأبهاه، كما استقلت في لوحة الأشقياء لفظة (باسرة) برسم أمقت لون وأنكاه¹⁷ وأصل هذا التصوير الفني الجذاب إنما هو عائد إلى حسن تخير أصوات الألفاظ وتناسقها. وذكر الدارسون جرس الكلمة وما له من تأثير على النفس البشرية فضلا عن دوره في تقوية المعنى وتوضيحه، وفي هذا المقام نجد تمام حسان يعطي تحيلا صوتيا ل (يصطرخون) في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (36) وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا (37)﴾ [فاطر، الآيتين 36، 37] فيقول: " فكأن ارتفاع أصواتهم بالصراخ ومشاركتهم جميعا فيه وتكرار ذلك منهم لا يكفي أن يعبر عنه بالفعل المجرد فيقال مثلا (وهم يصرخون فيها) ، فجاءت تاء الافتعال لتدل على المبالغة في إيقاع الحدث، وقد قصد لها أن تجاور الصاد المطبقة فتتحول بالمجاورة إلى التفخيم ليكون في تفخيمها فضل مبالغة في إيقاع الفعل"¹⁸. فأصل يصطرخون يصرخون، زيد عليها تاء الافتعال من الصراخ للدلالة على الجهد والشدة والمبالغة لتوحي بحجم العذاب .

وفي السياق ذاته نجد تحليلاً عذبا ينص على أن "الكلمة بجرسها الغليظ الصاخب ورنينها الخشن الصاك الذي يكاد يخترق صماخ الأذن تمثل الموقف أدق تمثيل ، فإن الصراخ المنبعث من نفوس تئن تحت وطأة العذاب ، صراخ عال مدوّ يختلط بعضه ببعض بدء ونهاية ، ويملاً المكان صخباً ورنيناً ، وإنك لتلحظ أثر الصاد والطاء في إبراز الصوت بمثل هذه الصورة الغليظة ، فهل كنت تحس شيئاً من ذلك لو وضعت كلمة يدعون الهادئة الوديعه مكان يصطرخون الهادرة العنيفة ؟ وهل كنت تقف على بلوغ قلقهم لولا كلمة يصطرخون الملائمة لجوهم النفسي أدق ملاءمة وأبرعها؟"¹⁹ ، وهذا الجرس إنما يتحقق من خلال مخارج الحروف وصفاتها فكلمة يصطرخون اكتسبت قوة معناها من قوة أصواتها الاحتكاكية التي تصور حجم العذاب المسلط على الكفار.

وهناك العديد من الأمثلة في القرآن الكريم على هذه الشاكلة والتي تبرز جليا الإعجاز الصوتي في آي القرآن الكريم؛ " فهذه الطاء والشين في قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاطِئُ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ [الرحمن، الآية 35] ، والشين والهاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ سَوِيئٌ الْمَصِيرُ﴾ (6) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيْقًا وَهِيَ تَفُورٌ (7) ﴿ [الملك، الآيتين 6، 7] ، والطاء في قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتَكُمْ نَارًا تَلْقَى﴾ [فاطر، الآية 14] ، والفاء في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ (11) إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا (12) ﴿ ، [فاطر، الآيتين 12، 11]؛ حروف تنقل إليك صوت النار مغتظة غاضبة ، وحرف الصاد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيْحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ (19) ﴿ [القمر، الآية 19] ، يحمل إلى سمعك صوت الريح العاصفة ، كما تحمل الخاء في قوله تعالى ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (14) ﴿ ، [النحل، الآية 14] إلى أذنك صوت الفلك تشق عباب الماء"²⁰

ومن أمثلة الإعجاز أيضا طريقة القراءة كما هو في الإدغام والمد والغنة وغيرها على نحو ما هو في الادغام المعجز أداء لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [البقرة، الآية 38] فـ "جرب أن تبدل المفردة القرآنية (انأقلتم) وتحل محلها لفظة (تناقلتم) ، ألا تحس أن شيئاً من الخفة والسرعة والنشاط أوحى به (تناقلتم) بسبب رصف حروفها وزوال الشدة وسبق التاء قبل التاء ؟ إذن فالبلغة تتم في استعمال (انأقلتم) للمعنى المراد ولا تكون في (تناقلتم)؛ فسبحان من نظم هذه المفردة في هذا الموقع المناسب"²¹ ، فالتاء اللثوية المتبوعة بمد وصوت القلقله القاف والتاء المهموسة والميم الشفوية التي أجبرت على المرور عبر الخيشوم ليكسبها نوعاً من الغنة ؛ كلها مجتمعة

تصور كيفية ودرجة التقاعس والقعود والركون إلى الأرض خشية الجهاد وهو أمر مكروه للمؤمن، مذموم صاحبه، سيئة عاقبته فجاء الإدغام ليبين ذلك كله ويصوره بإبداع متناه. وما نجد من تناسق وجرس في سورة الناس من بين الأمثلة الكثيرة في القرآن الكريم على مجانسة الصوت للمعنى، فصوت السين الصفيري المهموس الرخو المستفل المنفتح المرقق يحمل دلالة واضحة المعالم على وسوسة الشيطان التي لا تكون إلا همسا، ذلك أن ضعفه يمنعه من رفع الصوت فيلجأ إلى المخافتة الرقيقة التي توحى إلى العبد ضعيف الإيمان والنفس بأن الخناس له من الناصحين، ولا يتأتى له الأمر إلا إذا انتهج سهولة في الكلام وصفيرا متكررا قصد التمكن من الأنفس، فجاء تكرار السين ليدل على كل ذلك دلالة واضحة المعالم.

ومن صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم الفاصلة القرآنية، حيث أعطت التعبير قوة وانسيابا تلقائيا للنغم الموسيقي الذي يصاحب الدفق المعنوي، وهذا ما زاد من شدة التأثير النفسي الذي يحدث لدى المتلقي، وفي ذلك جمال صوتي بين أشار إليه ابن قتيبة بقوله "...وجعله مثلوا لا يُمل على طول التلاوة، ومسموعا لا تمجه الأذن، وغضا لا يخلق من كثرة الترداد".²²

ومن مظاهر الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، مدّ الصّوت للتّرّم والتخشّع، فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يمد في تلاوته، وورد في الصحيح "حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا جرير بن حازم الأزدي، حدثنا قتادة قال: سألت أنس بن مالك عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم، فقال كان يمد مدا"²³، ويلاحظ أنه: "كثّر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكن من التطريب بذلك كما قال سيبويه: انهم إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون لأنهم أرادوا مدّ الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا. وجاء في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع"²⁴، وما الإدغام والمد إلا صور مقتضبة عن أثر الأداء القرآني في بيان الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم.

2- حقيقة الإعجاز النفسي وصلته بالصوت اللغوي: معروف عن النفس العربية ولّعها بالطرب وتعلقها بالإيقاع؛ إذ ثبت أن فطاحلة شعراء العرب كانوا يستقون قوافي أشعارهم من وحي الطبيعة من حولهم، فتجدهم يُصغون باهتمام إلى وقع حوافر النوق والخيل ليحاكوا نغماتها ويضبطوا تعابيرهم الموسيقية الموزونة وفقها، فترحل بهم إلى عالم من الإيقاع، وترفرق بهم في فضاء المعاني والذوبان الروحي، وموسيقية اللغة العربية سمة في القرآن الكريم وإحدى خواصه، وهو أنموذج الكلام العربي الفصيح الذي يؤثر في النفس البشرية ويتغلغل في مكائنها فيفعل فيها فعل السحر، وهذا وجه آخر من أوجه الإعجاز في القرآن الكريم.

يقول الخطابي: "في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من أحادهم ، وذلك صنيعة بالقلوب وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا ، إذا قرع السمع خلص إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس وتشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاحة قد عراها الوجيب والقلق ، وتعشاها من الخوف والفرق ما تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمتهم ويدخلوا في دينه ، وصارت عداوتهم موالة وكفرهم إيمانا"²⁵ ، وهذا كله من تأثير الاستعمال الصوتي الفريد في ألفاظ القرآن الكريم " حتى أن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد ، ومن لا يعرفون لله آية في الآفاق ولا في أنفسهم ، لتلين قلوبهم وتهتز عند سماعه ، لأنّ فيهم طبيعة إنسانية ، ولأنّ تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة ، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الإنسان فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل أو اختلاف اللسان ؛ وعلى هذا وحده يؤول الأثر الوارد أن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا"²⁶ ، فمتى كان الحُسن في الصوت والدقة في الأداء والتزام القاعدة في أحكام التلاوة؛ كانت حلاوة التلقي ومتعة الإنصات ، وبلغ المتلقي ذروة التخشع وغاية المقصد تذوقا وشريعة .

يقول أمين الخولي: "إن هذا القرآن معجز من حيث هو فن أدبي ومن حيث هو هدى وبيان ديني ، ولم يدر الأمر فيه إلا على سياسة النفوس البشرية ورياضتها ، لأن الفن هو نجوى الوجدان ، والدين هو حديث الاعتقاد ، ومناجاة القرآن الروح أوضح من أن يستدل لها"²⁷ وهو بالتمام والكمال ما يصطلح عليه بالتأثير النفسي ومن ثم العقلي .

"القرآن كله روح ، وليست هذه الألفاظ وهذا التّظّم لإتخيلات لتلك الروح ، ومطالع تطلع منها ومنازل تنزل فيها ، والقرآن الكريم هو كلام ، هو كلام الله سبحانه وتعالى نفخ فيه من روحه ، فكان أمرا من الله وروحا من روحه ، لهذا سمي روحا"²⁸ في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى، الآية 52]

4. خاتمة:

نخلص ختاماً إلى أن القرآن الكريم كلام الله المنزل على عبده ، المتعبد بتلاوته ، معجز في كل جوانبه ما علمناه منها وما لم نعلمه ، أساسه من حيث البنية التركيبية صوت لغوي جاور غيره من أفراد عائلته ليعطي نسيجاً أدبياً غاية في الروعة ، بلغ في سموه عنان السماء فجاوزها ، وملاً الكون نوراً وهدى من خلال كل ما فيه ، إعجازه اللغوي بين وواضح ، خاصة في جانب أصواته المنتقاة بعناية ، تلك العناية الإلهية التي تحدى بها العرب أرباب صنعة الكلام والبلاغة ، وفي حديثنا عن إعجازه الصوتي في جانبه الدلالي لا بأس أن نشير إلى ما ينتج عنه من إعجاز نفسي روحي إذ تتساق الروح خلف آيه طوعاً ففتنه في عوالم العجب والهيام ، ولا بد من الالتفات إلى هذا الموضوع ودراسته بشكل حدائثي معاصر مواكبة للتطور العلمي من جهة ، ومؤازرة للموروث من جهة أخرى

¹الزرقاني - مناهل العرفان في علوم القرآن- مطبعة عيسى البابي الحلبي- ط3- ج2- ص309.

²أحمد ياسوف - جماليات المفردة القرآنية - دار المكتبي - دمشق- ط2- 1999- ص20.

³مصطفى صادق الرافعي- تاريخ آداب العرب - دار الكتب العلمية - لبنان- ط1- 2000- ج2- ص 170.

⁴علي بن نايف الشحور- الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم- جمع وإعداد خاص- المكتبة الشاملة- ص465..

⁵جلال الدين السيوطي - المزهر في علوم اللغة وأنواعها - دار الجيل بيروت- ج1 ص192.

⁶الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني - النكت في إعجاز القرآن - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن- تحقيق محمد خلف الله أحمد- د/ محمد زغلول سلام- دار المعارف- مصر- ط3- ص95/94.

⁷الزرقاني- مناهل العرفان في علوم القرآن- ج2- ص313.

⁸أبو حيان التوحيدي - أخلاق الوزيرين- أخلاق الصاحب بن عباد و ابن العميد - تحقيق محمد بن تاويت الطنجي- دار صاد- بيروت- 1992- ص135.

⁹محمد المبارك- فقه اللغة وخصائص العربية- دار الفكر للطباعة والنشر- لبنان- 2005- ص261.

¹⁰مصطفى صادق الرافعي- تاريخ آداب العرب- ج2- ص172-173.

¹¹عصام نور الدين- علم وظائف الأصوات اللغوية- دار الفكر اللبناني- لبنان - ط1- 1992- ص87/88.

¹²مصطفى صادق الرافعي - تاريخ آداب العرب - ج2- ص 172.

¹³حمد المبارك- فقه اللغة وخصائص العربية- ص263

- ¹⁴ ابن جنّي - الخصائص - تحقيق محمد علي النجار - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ط3 - 1986 - ج2 - ص160.
- ¹⁵ إبراهيم أنيس - من أسرار اللغة - مكتبة الأنجلو المصرية - ط7 - 1994 - ص145.
- ¹⁶ محمد إبراهيم شادي - البلاغة الصوتية في القرآن الكريم - دار الرسالة - مصر - ط1 - 1977 - ص28.
- ¹⁷ صبحي الصالح - مباحث في علوم القرآن - دار العلم للملايين - ط24 - 2000 - ص334.
- ¹⁸ تمام حسان - البيان في روائع القرآن - دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني - عالم الكتب - ج2 - ص204.
- ¹⁹ عبد العظيم المطعني - خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية - مكتبة وهبة - 1992 - ص263.
- ²⁰ أحمد عبد الله البليبي البدوي - من بلاغة القرآن - دار نهضة مصر - القاهرة - 2005 - ص60.
- ²¹ سامي محمد هشام حريز - نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا وتطبيقيا - دار الشروق - عمان - الأردن - 2005 - ص72.
- ²² ابن قتيبة - تأويل مشكل القرآن - تحقيق أحمد صقر - دار إحياء الكتب العربية - 1954 - ص3.
- ²³ ابن كثير - فضائل القرآن - تحقيق أبو اسحاق الحويني الأثري - مكتبة ابن تيمية - القاهرة - ط1 - 1416 هـ - الحديث 4776.
- ²⁴ جلال الدين السيوطي - الإتقان في علوم القرآن - مطبعة مصطفى الثاني الحلبي و أولاده - القاهرة - ط3 - 1951 - ج1 - ص105.
- ²⁵ الخطابي - بيان إعجاز القرآن - تحقيق عبد الله الصديق - دار التأليف بمصر - ص92/93.
- ²⁶ مصطفى صادق الرافعي - تاريخ آداب العرب - ج2 - ص173.
- ²⁷ أمين الخولي - مناهج التجديد - دار المعرفة - مصر - ص203.
- ²⁸ عبد الكريم الخطيب - إعجاز القرآن الكريم في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - ط2 - 1975 - ص236/237.